

المحاضرة الأولى: مدخل (بين الدلالة والمعنى)

مقدمة: إن الظاهرة اللغوية عند الإنسان تستوعب ثلاثة مفاهيم (اللغة، اللسان، الكلام)، فاللغة هي النموذج الكلي القانوني الخاص بجنس البشر (لغة الناس)، حيث تضم جملة من القوانين التي تصدق على كل لسان من الألسنة البشرية. أما اللسان فهو النموذج النمطي العربي لكل جماعة لغوية، حيث يتطابق مع منزلة الوجود النوعي عند كل مجموعة لغوية تشترك في معرفة ما يتم التحاور به، فنقول: اللسان العربي واللسان الروسي واللسان الانجليزي، وهكذا. أما الكلام فهو النموذج الشخصي السلوكي الإنجازي؛ أي كلام الأفراد كما نسمعه أو نتحدث به أو يمكن أن نسجله على آلة التسجيل.

وهنا تبدو اللغة أعم من اللسان، وتدرسها اللسانيات العامة مقابل اللسانيات الخاصة التي تدرس نظام كل لسان بشري على حدة. وغاية اللغة هي تحقيق وظيفة التواصل بين البشر، ولأداء هذه المهمة تعمل اللغة وفق نظام تندمج فيه كل مستوياتها (المعجمية والصوتية والصرفية والنحوية والتركييبية والبلاغية والأسلوبية)، كما ينتج المستوى الدلالي عن تفاعل تلك المستويات. ويُحدث هذا التفاعل الدلالي من خلال ربط ذهني بين الصورة المفهومية (المعاني) مع الصور المنطوقة للكلام (أصوات وملفوظات) أو المكتوبة (حروف وكلمات) أو المشاهدة (إشارات وحركات). أو ما يعرف اختصاراً بعلاقة الدال والمدلول التي اهتم بها علم الدلالة.

أولاً- تعريف الدلالة: الدلالة (بفتح الدال أو كسرهما) في اللغة هي اسم مصدر مشتق من الفعل (دلّ) بمعنى: أرشد، سدّد، وجّه، جمعها دلائل ودلالات، وتعني في معجم مقاييس اللغة: **إِبَانَةُ الشَّيْءِ بِأَمَارَةٍ تَتَعَلَّمُهَا، فَدَلَالَةُ الشَّيْءِ هِيَ إِبَانَتُهُ وَإِيضًا حَهُ، وَالْإِرْشَادُ وَالْهُدَايَةُ إِلَى مَعْنَاهُ وَتَوْجِيهِهِ إِلَيْهِ.**

واصطلاحاً هي كيفية دلالة اللفظ على المعنى. حيث عرفها الشريف الجرجاني في (التعريفات) بقوله: «هي كون الشيء بحالة يلزم منها من العلم به العلم بشيء آخر، والشيء الأول هو الدال، والثاني هو المدلول»، وقد عرّف (دي سوسير) اللغة بأنها نظام من العلامات/ الرموز، فالعلامة أو الرمز أو الدليل يتشكل من قسمين هما ثنائية الدال والمدلول، فالدال عنده هو الحرف المكتوب أو البصمة الصوتية، أما المدلول فهو الصورة الذهنية التي تتشكل لدى الإنسان عند سماعه الصوت أو رؤيته للحرف، فكلمة شجرة هي الدال، والصورة الذهنية التي يتصوّرها العقل للشجرة هي المدلول، وبين الدلالة والدليل استدلال يقود إلى المعنى.

ثانيا- تعريف المعنى: كلمة (معنى) مشتقة من الجذر (ع ن ي) بصيغة مصدر ميمي، ورديفها هو (اللفظ)، لذلك كثر الحديث في علم اللغة عن قضية جوهرية هي اللفظ والمعنى. وهي تنتمي إلى حقل دلالي يضم: الدلالة والمقصد والمفهوم والمغزى والمضمون، أما معنى (المعنى) فهو ما تعنيه وما تبلغه الكلمة، وما توصله إلى الفكر عبارة أو أية علامة أخرى تلعب دورا مماثلا، والمعنى هو فكرة المتكلم ونيته، أي حالة فكرية يود إبلاغها (تمثّل، شعور، فعل). وهناك تمييز لطيف بين (الدلالة) وبين (المعنى)؛ حيث يحدد (المعنى) في مقصود ثابت، ساكن، في حين تكتسب الدلالة التوالد والحركة، والنماء في محور المعاني، وبذلك يكون المعنى (sens)، محطة ثابتة في محور الدلالة (signification).

ثالثا- مفهوم علم الدلالة: يقابل ما يعرف في الفرنسية بـ: (sémantique) أو في الإنجليزية بـ: (semantics). يقول تمام حسان: "علم الدلالة أو علم المعنى أو علم السيمانتيك فرع من فروع الدراسات التي تناولها بالبحث أنواع من العلماء تختلف موضوعاتهم كالفلاسفة واللغويين وعلماء النفس والأنثروبولوجيا وعلماء النفس والأدباء والفنانين والاقتصاديين وعلماء الدراسات الطبيعية ولهذا كان اسم هذا العلم محل خلاف: (Sematology ; Semology ; Semasiology ; Semantics.)"

علم الدلالة هو العلم الذي يهتم بمعاني اللغة البشرية، فمدار علم الدلالة هو المعنى، دون أن يكتفي بالمعنى المعجمي للكلمة لأنه معنى مقيد بالمعجم ومستقل عن الخطاب وظروفه، لذلك يتجاوز علم الدلالة حدود المعنى المعجمي إلى المعنى النصي وخارج النصي؛ أي المعنى المتشكل بفعل تفاعل الوحدات النصية فيما بينها، وتفاعلها مع المعنى المقامي والسياق غير اللغوي. فعلم الدلالة يبحث في المعنى ووظائفه وأبعاده ونظرياته؛ وكيفية استخدام الألفاظ وفق بنى معينة ونسقٍ يَحْتَكُمُ إلى مجموعةٍ من القواعد اللغوية والبلاغية.

فإذا كان علم اللغة يدرس الصورة الصوتية أو الأكوستيكية للرمز اللغوي، فإنّ علم الدلالة يهتم بدراسة المحتوى المفهومي لهذا الرمز، فهو كما عرّفه أحمد مختار عمر: "ذلك الفرع الذي يدرس الشروط الواجب توفرها في الرمز حتى يكون قادرا على حمل المعنى".

واختير المصطلح العربي الدلالة مقابلا لعلم السيمانتيك، نظرا لانتشاره في المصنفات العربية القديمة، إلى جانب ما يُعين عليه مصطلح الدلالة من اشتقاقات في المادة (دل، الدال، المدلول، المدلولات...)، ومثل هذه الاشتقاقات لا يتيحها مصطلح المعنى لأنّ فيه عموما، كما أنه ألصق بعلم البلاغة. ومن هنا، فلا فرق بين علم الدلالة وعلم المعنى

من حيث المضمون والمحتوى، ولكن هناك فرق في الاستعمال فقد شاع استعمال علم الدلالة في هذا التخصص من فروع اللسانيات، في حين ارتبط علم المعنى بالمسائل البلاغية فقط.

رابعا- مفهوم علم العلامات: يقابل ما يعرف في الفرنسية بـ: (Sémiologie) أو في الإنجليزية بـ: (Semology). وهو علم يدرس العلامات بنوعيتها؛ اللغوية وغير اللغوية، وتكون أساسية في التواصل الإنساني.

1- العلامات اللغوية: لها علاقة مباشرة بتبليغ الناس، وغالبا ما تكون صادرة عن البشر في لغتهم المنطوقة أو المكتوبة أو الإشارية، ومن أمثلة اللغة الإشارية احمرار الوجه دلالة على الخجل، والتصفيق دلالة على التشجيع أو الاحتجاج، وكذلك الإشارات التي صنعها البشر للتبليغ مثل: إشارات المرور المتمثلة في الأضواء واللافتات، وإشارات التوجيه السياحي مثل اللافتات المتضمنة صورا أو أشكالا دالة على الفنادق والمطاعم والمستشفيات ومراكز الشرطة، وهذه العلامات هي محل التقاطع وحقل التشارك بين علم العلامات وعلم الدلالة.

2- العلامات غير اللغوية: ليس لها علاقة بنية التبليغ، ولكن لها معان، ومنها العلامات الطبيعية التي صقلتها التجربة مثل: الشهيق والزفير دلالة على التنفس، والأثر دلالة على المسير، والدخان دلالة على وجود النار، سواد الغيوم دلالة على قرب نزول المطر. قال تعالى: ﴿مَا دَهَمَهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ﴾ [سبأ، 14].

وعلم الدلالة هو فرع من فروع علم اللغة (اللسانيات)، كما أن الدلالة اللغوية هي فرع من علم العلامات (العلامية) الذي موضوعه هو العلامات والإشارات والأدلة بمفهومها الواسع لغوية كانت أم غير لغوية، وعلم الدلالة يتناول دراسة المعنى الذي تحمله العلامات اللغوية وحدها، وبذلك فهو أخص من علم العلامات.

فموضوع علم الدلالة هو الأدلة بشكل عام والدليل اللغوي بشكل خاص، وعلاقة الدوال بمدلولاتها، وهدفه الإجرائي هو حصر صور الأوضاع الدلالية كأنظمة قابلة للتحليل. فاللغة حاضرة دائما في كل فروع الدلالة لغوية كانت أم غير لغوية، غير أن دلالة العناصر اللغوية هي المعول عليها في الاتصال الذي يقوم أساسا على فهم العلاقة بين الدال والمدلول.